موارنة لبنان

في كتاب المطران نقولا مراد إلى ملك فرنسا لويس فيليب الأول

أنيتا نعيم يمين*

إن النزعة للدفاع عن حقوق الموارنة عميقة الجذور في تاريخ لبنان. والتزم الإكليروس الماروني، منذ القدم، الدفاع عن تلك الحقوق؛ منهم من حمل القضية المارونية إلى دول الغرب، ومنهم من أدى دور القيادة الوطنية والصمود حتى الاستشهاد. واللافت حقًا، إلى أن حاملي القضية المارونية لم يسعوا من أجل وطن قومي للموارنة تنحصر فيه طائفة دون سواها، بل اعترفوا بدور التعايش الذي لم يسقط على الرغم من الأزمات والاضطرابات داخل الوطن.

من هنا، أتت هذه الدراسة لكي تلقي الضوء على نموذج ماروني يُحتذى به بما ينطوي عليه من إقدام وجرأة وانفتاح في معالجة الواقع الماروني من جهة، وطلب حماية لبنان واستقلاله من الاحتلال العثماني وتقديم المصلحة الوطنية على ما عداها من جهة أخرى.

- **من هو المطران نقولا مراد؟**

المطران نقولا مراد[1] حامل القضية المارونية إلى الآستانة وروما وباريس خلال السنوات المضطربة (1840 - 1860)، وواضع كتاب "نبذة تاريخية في أصل الأمة المارونية[2] وعلاقتها بفرنسا، وفي الأمة الدرزية، وفي مختلف شعوب جبل لبنان"[3]. وهذه النبذة كناية عن دراسة تقع في 48 صفحة، صدرت عام 1844 في باريس وربما كانت أول كتاب يضعه ابن جبل لبنان باللغة الفرنسية، وأول تعبير منظّم للخطاب السياسي الماروني.



كان المطران مراد رجل فعل أكثر منه رجل فكر. ترك مراسلات مهمة نتلّمس آثارها في محفوظات الخارجتيين الفرنسية والبريطانية، وفي خزائن البطريركية المارونية في بكركي، كما في ربائد مجمع نشر الإيمان بروما وغيرها من المكتبات الخاصة، مما يظهر دوره والأهمية التي أحيط بها الجبل في المجالس الأوروبية.

وربما كان نقولا مراد، بسعيه لبعث الامارة الشهابية، وبدفاعه عن امتيازات الجبل، من الأوائل الذين عبّدوا الطريق على المستوى الدولي لحضور البطريرك

إلياس الحويك إلى مؤتمر فرساي عام 1919 للمطالبة بلبنان موسّع ومستقل عن الداخل الجغرافي.

- نشأته

وُلد نوهرا سمعان مراد في قرية عرمون (كسروان) سنة 1796، حسب ما ورد في سجلات مدرسة عين ورقة، التي دخلها في 1814.[4] غير أن مرجعًا آخر ذكر أنه وُلد سنة1799[5]. وأيًّا كان تاريخ ولادته، فالمعروف أنه التحق بهذه المدرسة يافعًا، وتلقّى فيها العلم على كبر. ويروي أحد المصادر أنه أقيم شماسًا عند تخرّجه، فاتخذه الشيخ غالب الدحداح مدرسًا لأولاده إلى أن دخل في خدمة الشيخ مرعي الدحداح وعمل كاتبًا عنده.[6] وهذه الرواية أقرب إلى الواقع من تلك التي تزعم أن الأمير بشير الثاني عيّن مراد أمين سرّ خاص له.[7]

مهما تكن هذه الحقبة من تاريخ مترجمنا غامضة، فاننا نستخلص من المصادر المتوفّرة[8] أنه عندما فرّ مرعي الدحداح من وجه الأمير الشهابي بعد هزيمة الشيخ بشير جنبلاط في 1825، لم يبق على مراد سوى الالتجاء إلى كنف البطريرك، واعتناق الحياة الكهنوتية.[9]

سيم مراد كاهنًا سنة 1826 وحمل اسم نقولا، ويبدو أنه عيّن في السنة نفسها على رعيّة ليفورنو المارونية في ايطاليا، حيث استقرّ إلى 1836،[10] بيد أن مرجعًا آخر حدّد سنة 1829 تاريخًا لهذا التعيين.[11]

- في ايطاليا

في أثناء وجوده في ليفورنو، كان الأب نقولا مراد، إلى جانب قيامه بدوره الرعائي،[12] على اتصال برجال السياسة وذوي النفوذ من ايطاليين وغيرهم،[13] وكأنه يهيّئ نفسه لدور طليعي، وربما للحلول مكان الأب اسطفان حبيش وكيلًا بطريركيًّا في روما. كما عالج قضايا كنسية، ومنها الخلاف القائم بين الموارنة واللعازاريين حول مدرسة عينطوره،[14] والنزاع بين البطريرك وآل اسطفان بخصوص رئاسة مدرسة عين ورقة[15]. عيّن الأب نقولا مراد وكيلًا بطريركيًّا في روما سنة 1836.[16]

تعرف، وهو في روما، إلى السفير العثماني أحمد فتحي باشا الذي كان متجهًا إلى مركزه الجديد في باريس، فاطّلع منه على أخبار الآستانة[17] واجتمعا عدة مرات على التوالي. فكتب مراد إلى البطريرك يخبره عن العروض المغرية التي قدّمها السفير لاستمالة الأمير بشير شرط أن يعلن خضوعه للسلطان والتخلي عن محمد علي[18]. وقد ذاع صيت مراد في الأوساط المارونية حتى ان كاهنًا (؟) مارونيًا طلب إلى الحبيشي تدخل مراد لدى فرنسا للحصول على حماية أشمل للموارنة المقيمين في الربوع المصرية.[19] إلاّ أن هذه المداخلات والنشاطات ما كانت تنذر بالدور الذي سيؤديه مراد مع ظهوره على مسرح الأحداث السياسية في أواخر سنة 1839.

- رحلته الأولى إلى باريس

غادر الخوري مراد روما في الثامن من أيلول 1839. فوصل إلى باريس في 8 تشرين الأول ونزل في اكليريكية الإرساليات الأجنبية (Séminaire des missions étrangères) وفي طريقه إلى العاصمة الفرنسية، عرّج على "ليفورنو"، ومن ثم على الشيخ مرعي الدحداح المقيم في مرسيليا، وعلى الشاعر لامرتين في ماكون. وفي باريس قابل الملك لويس- فيليب في 11 تشرين الثاني، بمسعى من الملكة ماري- اميلي التي كان مراد قد زارها في 5 تشرين الثاني[20]. وخلال اقامته التي لم تتعدّ الشهرين، تعرّف إلى بعض أولاد الملك[21]، كما اجتمع برئيس الوزراء وزير الخارجية المارشال سولت[22](Soult) الذي منح شقيقه همام مراد كتاب حماية بواسطة قنصلية بيروت.[23]

- في روما من جديد

عاد الخوري مراد إلى روما، فوصلها في أواخر سنة 1839.[24] إنما ظلّ على اتصال بالعاهل الفرنسي، فكاتبه ملتمسًا تدخل سفارته في الآستانة لدعم موارنة حلب المقيمين في اسطنبول في نزاعهم مع الأرمن الكاثوليك[25]. وعندما تناهت إليه أنباء انتفاضة الجبل ضد المصريين، عزا مراد أسبابها إلى فحش الضرائب، وطلب تدخل فرنسا من أجل "طائفة اعتبرت دائمًا فرنسية".[26] ومع استفحال الأمر في لبنان، استنجد مراد برئيس الوزراء وزير الخارجية الفرنسية أدولف تيارس، محاولًا تبرير الثورة على المصريين، مؤكدًا أن الموارنة رفضوا الأمم الأخرى وفاءً لفرنسا، ولأنهم فخورون بالانتماء إليها[27]. ولقد أثار بواسطة الصحافة الفرنسية حملة ضد الجيش المصري والفظائع التي كانت ترتكب في الجبل.[28]

في هذا السياق، تابع اتصاله بسفير فرنسا لدى الكرسي الرسولي لاتور- موبور، ليطلعه على تطورات الوضع في جبل لبنان.[29] كما سعى من جهة أخرى لدى وزير الخارجية الفرنسية الجديد غيزو (Guizot) لإعادة القنصل بروسبير بوريه إلى مركزه في بيروت، بعد أن عزل بسبب تعاطفه مع ثورة الموارنة ضد إبراهيم باشا حليف فرنسا حينذاك[30]. وقد تحقّقت السلطات الفرنسية بواسطة الخوري مراد من مساعي النمسا للحلول محلها في حماية الموارنة ورعاية شؤونهم،[31] مما يفسّر اهتمامها به، ومتابعتها لتحركاته ومنها توجّهه إلى جبل لبنان، حاملًا مبلغ 40 ألف فرنك، هبة من قبل مجمع نشر الإيمان، للمنكوبين من الموارنة.[32] وهذه النشاطات والتنقلات تكذب الرواية الزاعمة أن الخوري مراد كان إلى جانب الأمير بشير في منفاه في جزيرة مالطة.[33]

- في جبل لبنان

فور وصوله إلى لبنان (في أوائل آذار على الأرجح)، بذل مراد جهده لتدعيم دور فرنسا، وإحباط محاولة الأب اليسوعي مكسيمليان ريللو (Ryllo) وكيل القصادة الرسولية، المتعاطف مع البلاط النمساوي. وظلّ على اتصال بالسفير الفرنسي في الآستانة، فبعث إليه بصورة عن التماس رفعه الموارنة إلى السلطات العثمانية، ووعده بتقرير عن الوضع المضطرب في الجبل. وكان يطلعه باستمرار على مجريات الأحداث في لبنان، كالاشتباكات التي وقعت بين الدروز والموارنة. وتشير المراسلات إلى أن الأب مراد وجّه بواسطة السفير المذكور كتابًا إلى وزير الخارجية

غيزو، يطلب فيه تدخّل فرنسا لخفض الضرائب. كما ظلّ مراد على اتصال بالقنصل الفرنسي في بيروت للتنسيق معه في مواجهة المستجدات السياسية. وكان طوال هذه الفترة، يعمل وفق مخطّط البطريرك حبيش، الرامي إلى إعادة الأمير بشير الثاني إلى الحكم، وضمان حقوق الموارنة والتعويض عليهم.

- **تردي الأوضاع السياسية في الجبل**

توالت على الجبل في الحقبة ما بين 1840 و1844، أحداث امتازت بتسارعها وبنتائجها على صعيد النظام السياسي، وعلاقة الطائفتين الدرزية والمارونية ببعضها. وفي طليعة تلك الأحداث انتفاضة الجبل، في حزيران 1840 على جيش إبراهيم باشا، وقد مهّدت مداخلات دولية لتلك الحركة، مستغلة نفور سكان الجبل من ممارسات الحكم المصري، الذي ضاعف الضرائب، وفرض السخرة، وحاول نزع السلاح من الأهلين وسط شائعات تنذر بالتجنيد الاجباري. وقد نجحت هذه الانتفاضة بمساعدة أساطيل الدول الأجنبية. ومع انسحاب الجيوش المصرية ونفي الأمير بشير الثاني، أُعلن الأمير بشير الثالث أميرًا على الجبل في تشرين الثاني 1840. غير أن غياب بشير الثاني أفقد الامارة الكثير من هيبتها وشرعيتها، فأخذت تتفكّك. ودخل الجبل دوامة الأزمات والنزاعات الطائفية التي بلغت ذروتها عام 1860.

ولم يكن بشير الثالث الرجل القوي الملائم لتلك الفترة المضطربة، فسرعان ما خاب أمل الدروز به، وقد رفض إعادة الحقوق التي انتزعت من الاقطاع الدرزي أيام سلفه. لكن البطريرك حبيش ظلّ متمسكًا به اعتقادًا منه أن سوء الإدارة الجديدة سيعمل حتمًا على عودة بشير الثاني إلى السلطة. وضاق الأمر بالدروز، فأرسلوا في نهاية حزيران 1841 عريضة إلى الباب العالي تطالب بتعيين رئيس لهم يرعى شؤونهم، جاء فيها: "أجل، إن المسيحيين هم أوفر عددًا منّا، إنما بعون الله وعضد الباب العالي سنكون دائمًا الظافرين في كل المواقع التي ستدور رحاها"[34]. وقد شهدت تلك الحقبة تفكك عرى التضامن الماروني- الدرزي وكانت سنوات الاحتلال المصري قد تركت بذور خلافات عديدة بين الطرفين.

نشب أول اقتتال طائفي في تشرين الأول 1841 في دير القمر. وتعرّض بشير الثالث للإهانة دون أن يتحرّك العثمانيون لنجدته، فالفرصة كانت سانحة لهم للقضاء على نظام الامارة. وقد انتهج الباب العالي منذ 1839 سياسة اصلاحية رمت إلى تدعيم سلطته المركزية وتثبيت الحكم المباشر على الأقاليم كلّها، وإلغاء الامتيازات المحلية، والقضاء على نفوذ الدول الأجنبية ومداخلته لحماية رعايا السلطنة. وقد شجعت روسيا الباب العالي على جعل جبل لبنان ولاية عثمانية. ومع سقوط بشير الثالث انهارت الامارة وعيّن عمر باشا النمساوي في أوائل 1842 حاكمًا على الجبل، فأحرزت السياسة العثمانية نجاحًا بتحقيق اهدافها.

رضي الدروز في أول الأمر عن هذا التعديل الجذري لنظام الجبل، ولم يفلح عمر باشا في استمالة الموارنة كمجموعة. فظلّوا والبطريرك حبيش على ولائهم للأسرة الشهابية ومطالبتهم بالامارة، فيما راح الدروز يتذمّرون من الحكم العثماني المباشر، ويسعون لاعادة العلاقة مع الموارنة. لكن الصدع لم يرأب بسبب الأحداث الدامية التي وقعت بين الطرفين، وقيام تحالف درزي - بريطاني في خريف 1841 قضى نهائيًا على امكان بعث تضامن درزي- ماروني ترعاه فرنسا كما في الماضي. وفي الوقت عينه، كانت إرادة عمر باشا توجّه إلى الباب العالي عرائض مزّورة وأخرى انتزعت قسرًا، تطالب بالحكم العثماني المباشر. فاعترض البطريرك على هذه الممارسات في حين كان الأب نقولا مراد في الآستانة يقوم بحملة تكذيب لهذه العرائض، كما اعترض سفراء دول أوروبا عليها، فافتضح الأمر وفشل عمر باشا في مسعاه.

واستأثر وضع لبنان من جديد باهتمام الدول الأجنبية. وعلى الرغم من التباين بين وجهتي النظر الفرنسية والعثمانية توصلت الدول الكبرى إلى تبني اقتراح ميترنيخ الرامي إلى انشاء قائمقاميتين: شمالية للنصارى وجنوبية للدروز. بوشر فعليًّا بتطبيق هذا النظام في كانون الثاني 1843. وامعانًا في تفتيت وحدة الجبل صدر فرمان يقضي بسلخ اقليم جبيل عن قائمقامية النصارى وإلحاقه بولاية طرابلس. فتدخلت على الأثر سفارة فرنسا لدى الباب العالي، مشيرة إلى أن المقاطعات الشمالية هذه مارونية بأكثريتها الساحقة، وبالتالي فهي تدخل في نطاق النفوذ الفرنسي وليس للدولة العثمانية أن تضعها تحت ادارتها المباشرة[35]. وقد لاقى المسعى الفرنسي نجاحًا في نيسان 1843. لم يكن نظام القائمقاميتين الذي أسقط الامارة الشهابية من الحساب، ليرضي الموارنة لاسيّما الخاضعون منهم لسلطة القائمقام الدرزي، إضافة إلى أنهم لم يحصلوا على التعويضات التي وعدوا بها، فراحوا يحتجون على وضعهم، وكان نقولا مراد في الآستانة ثم في روما وباريس يوجّه العرائض إلى الدول الاوروبية، شارحًا وضع قومه المتردي، ملتمسًا حماية الدول المسيحية.

- **في الآستانة**

كانت عرائض مسيحيي الجبل تتدفّق على اسطنبول حيث وصل الخوري مراد في تشرين الثاني 1841، ونزل عند الياس حوا وكيل البطريرك في الآستانة[36]. فتضافرت جهودهما في سبيل القضية المارونية. إلاّ أن دور الأب مراد كان له الصدارة وقد باشر نشاطه، بحماسة وقناعة أن حضوره إلى الآستانة "قد طلع بإلهام الهي"[37]. ولا يسعنا أن نحصي مجموعة الرسائل والعرائض التى وجّهها إلى مختلف الأطراف أثناء اقامته في عاصمة السلطنة، إنما نورد منها:

- مذكرة رفعها إلى الباب العالي يشكو فيها معاملة الدروز لبشير الثالث، ويذكر بخضوع الموارنة للدولة العثمانية، وتعلّقهم بها، ويطالب باعادة بشير الثاني حاكمًا على الجبل[38].

– رسالة إلى وزير الخارجية الفرنسية غيزو، يدّعي فيها أنه "كان دائمًا فرنسيًّا بالروح"، ويطالب بعودة الأمير بشير الثاني[39].

– رسالة باللغة الايطالية إلى الأب روتان رئيس عام اليسوعيين يشكو فيها تعسّف عمر باشا النمساوي، ويثني على الأب ريلّلو[40]. كذلك أثنى عليه في رسالة إلى لاتور – موبور[41]. غير أن فرنسا ومجمع نشر الإيمان كانا يعارضان عودة ريلّلو إلى الجبل[42].

– التماس إلى الباب العالي يطالب به بعودة الشهابيين إلى الحكم عملًا بامتيازات الموارنة منذ القدم[43]. وإثر بعض التطمينات ظنّ الأب مراد أن الباب العالي موافق على عودة الأمير بشير الثاني إلى حكم الجبل[44].

– رسالة إلى غيزو يطالب بها التدخل العسكري الفرنسي لنجدة المسيحيين[45].

– مذكرة إلى ممثلي الدول المسيحية لدى الباب العالي يشكو فيها من أعمال العنف والسطو التي يقوم بها الدروز والألبان، ويطالب بأمير مسيحي على الجبل، مكذّبًا العرائض المرسلة من لبنان والتي تطالب بحاكم عثماني[46]. وقد أعقبها بمذكرة أخرى تردّد مطالبة بعض مسيحيي لبنان بتنصيب أمين بن بشير الثاني أميرًا على الجبل، وتكذب العرائض التي يجمعها عمر باشا قسرًا، وتدعو الأمم المسيحية إلى التدخل لمنع المجازر[47].

كذلك كتب، في الموضوع نفسه، إلى السفير الفرنسي السابق في الآستانة دي بونتوا (De Pontois) الذي عاد في مهمة إلى اسطنبول، يشكو له حالة الجبل ومساعي العثمانيين لوضع اليد عليه، طالبًا تدخل فرنسا لحماية المسيحيين[48].

إلاّ أن هذه النشاطات المتزايدة، وعلى كل الاتجاهات، لم تعط النتائج المرجوة، بل أفقدت صاحبها مراد مصداقيته لدى الأطراف المعنية، لا سيّما الطرف الفرنسي الذي كان يدعم قضيته. فالوزير المفوض الفرنسي في الآستانة بوركنيه كان على حذر منه لدرجة أنه احتفظ برسالة وجّهها غيزو إلى مراد خوفًا من أن يستعملها هذا لتعطيل الاجماع القائم بين ممثلي الدول. فشخصية مراد، في نظر الوزير المفوض، لا تعطي ضمانات التروي والحذر[49]. فبوركنيه كان قد انتهج، منذ البدء، سياسة متزنة في معالجة شؤون الجبل ولم يرض بأن يشنّ الموارنة حملة ضد الباب العالي تحت الراية الفرنسية[50]. وتطمينًا لموفد الموارنة فقد أكد له أن الحماية الفرنسية مستمرة، إلاّ أنه رفض اقتراحاته بشأن تأمين هذه الحماية[51]. ولقد صرّح بوركنيه، في ما بعد، برأيه حين قال إن مراد يسيء بتصرفه الخاص إلى المصالح التي يريد الدفاع عنها[52]. ومع ذلك فقد ظلّ الوزير المفوض يقدّم الدعم لممثل البطريرك إنما بانتظام وحسب مقتضيات الحال[53]، وقد تضافرت الجهود مع وصول وفد ماروني إلى الآستانة يطالب بعودة الشهابيين[54]. وكان سبق لمراد أن واجه تحرّكات الموفدين الدروز الذين قدموا إلى الآستانة في كانون الثاني سنة 1842[55].

لم يكن وزير الخارجية غيزو مقتنعًا بجدوى مطالبة فريق من اللبنانيين ببشير الثاني بالذات، الأمر المرفوض لدى الباب العالي، بل ارتأى المطالبة بحكم الجبل للأسرة الشهابية دون تحديد اسم الأمير الحاكم[56]. لم يعارض مراد، ترشيح الأمير أمين إلاّ أننا لا نعلم ما دار بهذا الخصوص بينه وبين بشير الثاني، ويظهر أنهما كانا على اتصال منذ وصول الأمير وعائلته من مالطة في صيف 1841 واقامتهم في اسطنبول[57]. وقد اطلع مراد البطريرك على احتمال تنصيب أمين، الأمر الذي قوبل بالرفض عند بعض الأطراف[58].

من جهة أخرى كان الخوري مراد يتسلّم عرائض مشايخ وأهالي الجبل[59]، لتكذيب تلك التي كان يجمعها عمر باشا النمساوي قسرًا. وقد ذكر قنصل فرنسا في بيروت أن ثلاثة آلاف ختم تصدّق على تسعة آلاف توقيع وصلت إلى موفد البطريرك في الآستانة[60].

ومع أن الوزير المفوض الفرنسي كان يشد من عزيمة مراد، راح اليأس يتسرّب إلى نفسه؛ فبوركنيه كان يدرك أن موفد البطريرك لن يشارك في أي مشروع لا يؤدّي إلى عودة الشهابيين إلى الحكم، فمراد لا يمثل، في نظره، مصالح مسيحيي الجبل بقدر ما يمثّل مصالح آل شهاب[61]. وفي محاولة أخيرة منه لعب خلالها على الوتر الديني، وجّه مراد رسائل جديدة إلى ممثلي الدول العظمى، عارضًا فيها أحوال المسيحيين وشاكيًا تعسّف الباشاوات ومطالبًا بالشهابيين[62]. غير أن رسالته إلى غيزو تكشف شعوره بالفشل؛ فبعد تأكيد رغبة الباب العالي في تنصيب حاكم تركي على الجبل، دعا فرنسا إلى الحصول بالقوّة على ما لم تحصل عليه بطريقة أخرى. ثمّ جاء إعلان نظام القائمقاميتين، ليقضي نهائيًّا على فكرة إعادة الشهابيين، فكانت خيبة أمل مراد، الذي عارض بشدّة هذا النظام الجديد. وقد استنجد بممثلي الدول للحؤول دون إلحاق اقليم جبيل بولاية طرابلس[63] كما راسل قائمقام النصارى الأمير حيدر أبي اللمع بهذا الخصوص وبشأن الموارنة المقيمين في القائمقامية الدرزية ينصحهم "بأن لا يقبلوا أن يكون واليهم الدرزي"[64].

ومع تثبيت نظام القائمقامية أشرفت مهمة مراد في الآستانة على نهايتها. فغادرها على أمل متابعة جهوده في أوروبا. وقد عانى في تلك الأثناء من ضائقة مادية، فطلب من الحكومة الفرنسية مساعدة مالية لسدّ نفقاته الشخصية[65].

– عودته إلى روما

غادر مراد الآستانة إلى روما في آب 1843، وظلّ على اتصال ببوركنيه، وعندما علم الوزير المفوض بنية مراد التوجّه إلى باريس، نصحه بالعدول عن السفر بحجة أن بقاءه إلى جانب الحبر الأعظم ضروري[66]. أما في الواقع، فكان بوركنيه يخشى من أن يثير الأب مراد في باريس خلافات بين الأطراف الدولية التي سبق أن وافقت على النظام الجديد للجبل.

ولم تطل اقامته في روما حتى رقي إلى درجة الأسقفية لاضفاء صفة تمثيلية رفيعة على الناطق باسم البطريرك في المحافل

الدولية من جهة، ولترقية الطلاب الموارنة في روما إلى درجة الكهنوت من جهة ثانية[67]. غير أن سيامته الأسقفية لم تتم بسهولة، إذ إن مجمع نشر الإيمان لم يأنس للطريقة التي انتهجها الحبشي في هذا الشأن، وسبق أن ردّ المجمع طلبًا مماثلًا للبطريرك سنة 1837[68]. فبعد حلّ الاشكالات، وجّه جيوفاني برونيللي (Brunelli) أمين سرّ المجمع المقدّس، رسالة إلى مراد في 26 أيلول 1843، يبلغه عزم الخبر الأعظم على ترقية مطران نظرًا للخدمات التي أسداها إلى الأمة المارونية، وإلى الكثلكة في سوريا.

- **زيارته الثانية لباريس**

غادر المطران مراد روما في 18 كانون الأول 1843 قاصدًا باريس، فحلّ فيها في 9 كانون الثاني 1844[69]، ولقي ترحيبًا كبيرًا، لا سيمّا في أوساط الاكليروس العليا، وكان ضيفها في العديد من الاحتفالات والمناسبات[70].

وبعد وصوله بيومين، ذكرت احدى الصحف الفرنسية أن البابا كلّفه حلّ الخلاف القائم بين الاكليروس الفرنسي والجامعة الفرنسية، مما دعاه إلى تكذيب هذا الزعم، والتصريح بأنه حضر إلى فرنسا للاهتمام بشؤون موارنة جبل لبنان[71].

كانت له سلسلة مقابلات مع الملكة ماري- اميلي، والملك لويس- فيليب، وقد عرض قضايا الجبل على المسؤولين، ومنهم وزير الخارجية غيزو الذي اجتمع به أكثر من مرة[72]. وفي 30 نيسان 1844، وجّه كتابًا إلى العاهل الفرنسي يهنئه بعيده، ويذكّره بالامتيازات ورسائل الحماية التي منحها ملوك فرنسا للموارنة من القدّيس لويس التاسع إلى لويس الخامس عشر[73]. كما حمل له عريضة مشايخ الموارنة الشاكين من الحالة المتردية في لبنان[74]. وكان قد وجّه إلى غيزو في 8 نيسان رسالة يرثي فيها حالة الموارنة المقيمين في المناطق المختلفة، فأعرب الوزير الفرنسي في رسالة جوابية عن شديد اهتمامه بهؤلاء[75]. ولم تقتصر زيارته على المسؤولين الفرنسيين، بل كان يلتقي رشيد باشا السفير العثماني في باريس، فنمت بينهما أواصر الصداقة[76].

ويبدو أنه لم يتخلّ عن فكرة إعادة الشهابيين إلى الامارة، وكان يراهن على تفاهم فرنسي بريطاني[77]. فكتب يطلب من بوركنيه متابعة جهوده في هذا الشأن[78]. كما أبلغ مشايخ النصارى الموجودين في المناطق المختلطة أن الدول أعطت تعليمات إلى سفرائها في الآستانة بخصوص عودة آل شهاب، وحثّهم على رفض حالتهم الحاضرة[79]. وقد وجّه مسيحيو الجبل إلى الحكومة الفرنسية عريضة يعينون بها المطران مراد ممثلًا لهم، ويشكون فيها أوضاعهم في المناطق المختلطة، ويطالبون بإدارة مسيحية ترعى شؤونهم وبعودة الشهابيين، وبالتحديد بشير الثاني أو ابنه أمين إلى الحكم. وقد حملت هذه العريضة تواقيع أمراء المتن ومشايخ آل حبيش والضاهر وأبي صعب والخازن والدحداح والخوري وعموم أهالي جبل لبنان (المجموع 217 ختمًا)[80].

- **خلافه مع الديبلوماسية البريطانية**

زار المطران السفير البريطاني كولي (Cowley)، خلال إقامته في باريس، وسلّمه كتابًا إلى وزير خارجيته اللورد ابردين (Aberdeen)، مبديًا استعداده لزيارة لندن، غير أن السفير نصحه بالعدول عن ذلك. وبعد لقائه مع السفير عاد فوجّه إليه كتابًا، مرفقًا بعريضة من الموارنة إلى الحكومة البريطانية. فما كان من السفير إلاّ أن اطلع ابردين على ما دار بينهما، ورفع إليه كتابي مراد والعريضة المذكورة[81].

هذا في باريس، أما في لبنان فقد أثارت تحركات المطران مراد حفيظة الكولونيل روز (Rose) قنصل بريطانيا في بيروت. فكتب إلى طوبيا عون أسقف عرقا، يسأله عن أسباب الزيارة إلى فرنسا وأسبابها. فحاول عون، باسم البطريركية، التنصّل من الموضوع مدّعيًا أن لا علم له بالأمر[82].

غير أن مراد تابع سعيه، فرفع إلى ابردين مذكرة ثانية، يشرح له فيها الوضع المتردي في الجبل منذ قيام نظام القائمقاميتين، معدّدًا الأعمال التي يذهب الموارنة ضحيتها[83]. كما وجّه كتابًا إلى ستراتفورد كاننغ سفير بريطانيا في الآستانة، يعلمه بعدوله عن زيارة لندن، ويفيده بالمعلومات التي أعطاها إلى ابردين ويناشده التدّخل لاعادة الامارة إلى الشهابيين[84]. كان جواب ابردين[85] على مذكرة مراد، المؤرخة في 10 نيسان، سلبيًا. ويفيدنا هذا الجواب أن الوزير طلب من سفيره في الآستانة وقنصله العام في سوريا رفع تقرير بخصوص ادعاءات المطران، وأن حكومة جلالتها لم تعط أية تعهدات كما ظنّ مراد على خطأ.

لم يتوقّف المطران عند هذا الحد، بل أرسل إلى ابردين عريضة مسيحيي لبنان[86] التي عيّنته وكيلًا عنهم، واتهمت الكولونيل روز بالانحياز إلى الدروز، والباب العالي بمحاولة اخضاع قسم من المسيحيين لهؤلاء، كما طالبت باعادة الحكم إلى السلالة الشهابية. وبالطبع لم تلق تحركاته ترحيبًا في الأوساط الرسمية البريطانية، ولا سّيما الاتهامات الموجّهة ضد روز. فكان رد ابردين في 18 أيار 1844[87] عنيفًا، إذ أعلن عن رغبته في إرسال العريضة إلى الكولونيل المذكور لفضح أسماء الذين تعرّضوا له من مسيحيي الجبل.

تفاعلت القضية في لبنان، ووقع البطريرك نفسه في حرج، فكتب إلى الكولونيل روز نافيًا صفة مراد التمثيلية، وناكرًا حصوله على تفويض من مسيحيي الجبل[88]. إلاّ أن إلياس حوا وكيل البطريرك في الآستانة، الذي كان قد استضاف مراد عند وصوله إلى عاصمة السلطنة، لم يسعه الاّ تأكيد صحة التفويض والصفة التمثيلية، في رسالة إلى سفير النمسا في اسطنبول الذي استوضحه في هذا الخصوص[89]. كما أن فريقًا من الموارنة لم يرق له موقف البطريرك، وظلّ على دعمه للمطران.

فصدرت عريضة جديدة، في 3 تموز 1844 عن مشايخ وعشائر ووجوه وعموم نصارى جبل لبنان، تحمل حوالي 116 ختمًا[90]. وقد صادق عليها المطرانان يوسف رزق وانطون الخازن، هذا نصّها:

"إننا نحن نصارى جبل لبنان بوجه بالعموم نعلن ونوضح ونقرّر لدى الجميع أن سبب توجّه سيادة المطران نقولا مراد الوكيل البطريركي الكلي الشرف من هذه الديار إلى الآستانة العلية وإلى بلاط باقي الدول العظام هو بالوكالة المطلقة العامة عن نصارى جبل لبنان كافة، وذلك ليقدم لدى حضرة وليّ نعمتنا الدولى العلية صانها وحفظها باري البرية ولدى ساحة مراحم الدول العظام المتحابة الاسترحامات عنا باعطاء راحتنا وأمنيتنا، وقد كرّرنا لسيادته الكتابات المتواصلة إلى الآستانة العلية وإلى باريز، وأوضحنا له عن كيفية أحوالنا وما الذي يريحنا بالتصريح، ومن ثم فكلما قرّره السيد المومى إليه فهو بحسب طلبنا ولأجل البيان قد تسطّر هذا ليكون معلومًا لدى الجميع أن سيادته هو الوكيل العام المطلق عن جمهورنا".

ربما كانت هذه العريضة جزءًا من حملة مضادة تهدف إلى تعزيز موقف المطران مراد، الذي تخلّى عنه البطريرك، داعمًا بذلك موقف الديبلوماسية البريطانية. وقد كتب ابردين إلى السفير كولي معبّرًا عن ارتياحه لنظام القائمقائميتين، موضحًا أن فريقًا من الموارنة يحاول الاطاحة به واعادة بني شهاب إلى الحكم، ومشيرًا إلى أن المطران مراد، أحد زعماء هذا الفريق، ليس كما يدّعي ممثل الموارنة المعتمد، طالما أن البطريرك وطوبيا عون أنكرا عليه هذه الصفة[91]. وبعد قليل وصلت ملحوظات السفارة البريطانية في الآستانة على مزاعم مراد الواردة في مذكرته إلى ابردين العائدة إلى 10 نيسان 1844، ففندتها واحدة واحدة[92].

أمّا في لبنان فقد حاول القنصل الفرنسي بوريه تعليل موقف البطريرك من معتمده، فكتب إلى الوزير غيزو يعلمه أن الحبيشي لم يكن موافقًا على الأسلوب العدائي والفوضوي الذي اعتمده المطران في هذه المرحلة الدقيقة[93]. وبدوره كتب مراد إلى غيزو داحضًا مزاعم الكولونيل روز القائلة إن البطريرك لم يكن على علم بنشاطه، وأنه تصرّف من دون تفويض[94]. كما ان القنصل بوجاد الذي حلّ محل بوريه، كشف ملابسات القضية ومنها أن روز أوقع البطريرك في مأزق، فكان على هذا الأخير إما أن يوافق على اتهامات مراد للسلطات العثمانية، وإما أن يتنصّل من معتمده ويعلن عدم موافقته على سفره إلى باريس[95]. فاختار الموقف الثاني، وخذل مراد.

- **صدور "النبذة التاريخية"**

لم يكتف المطران مراد بالاتصالات التي أجراها مع المسؤولين الفرنسيين وغيرهم في باريس، وبمراسلة السفراء، بل عمد إلى نشر "النبذة التاريخية في أصل الأمة المارونية" التي صدرت بين أواخر أيار وأوائل حزيران 1844. وقد خصّ فقراء الأمة المارونية بريعها، فلاقت اقبالًا ونجاحًا أدّى إلى إعادة طبعها في السنة نفسها، ولوحظ أن الصحافة المؤيّدة للملكية والكثلكة روّجت لها[96].

جاء نصّ النبذة بلغة فرنسية أنيقة لا يشوبها عيب، ممّا يدعونا إلى التساؤل عن هوية مترجمها، لأن المطران مراد الذي اتقن اللغة الايطالية، لم يكن يلمّ بالفرنسية بشكل

يسمح له بكتابة هذه الصفحات المنمقة أسلوبًا وشكلًا.

إلاّ أن المطران مراد لم يتطرق في "النبذة التاريخية" إلى الأحداث التي توالت على الجبل، من تعيين بشير الثالث وحكم عمر باشا، إلى نظام القائمقامية، بل اكتفى بالاشارة إلى أن بشير الثاني مقيم في اسطنبول، وعرض ما حلّ بالموارنة من نكبات دون ذكر التواريخ[97]. فكان هدفه الأساسي اطلاع الرأي العام الفرنسي على العلاقة المميزة بين فرنسا والموارنة، محاولًا دمج تاريخ طائفة مشرقية بتاريخ فرنسا، وكان لا بدّ لهذه المحاولة أن تلقى ترحيبًا في بلد أخذ يتحسّس دوره حيال القضية الشرقية ولا سيما أن بعض الأوساط الفرنسية كانت تعيش أجواء رومنسية وتراود خيالها الحملات الصليبية. فمنذ الاحتلال المصري وبيروت تكنى "بباريس الشرق" نسبة إلى ازدهارها ودور الجالية الفرنسية فيها. ومع تراجع إبراهيم باشا تحت ضغط الحلفاء، انطلقت تظاهرات في باريس تهتف "أخذ الانكليز بيروتنا". كما طالبت الصحافة الفرنسية، حتى المعتدلة منها، القيام بحملة عسكرية لدعم نفوذ فرنسي في الشرق[98]. ومع بلوغ فرنسا أخبار الاقتتال الطائفي والمجازر التي راح ضحيتها النصارى في أوائل الاربعينات، زاد الاهتمام الفرنسي بالمنطقة.

- **استغاثة المطران مراد بفرنسا**

وسط هذه الأجواء استغاث المطران مراد بأخوة له في الدين والتاريخ؛ فأصرّ في القسم الأول من "النبذة التاريخية" على تعلّق قومه بالمعتقد الكاثوليكي الصحيح. فليس ذلك جريًا على العادة المألوفة فحسب، بل لكون رسالته موجّهة إلى أوساط مسيحية واكليريكية كانت تعيش في أثنائها تجدّدًا في الحياة الدينية، جعلت من فرنسا تربة خصبة لحركة الدعوات والتبرعات والارساليات إلى الخارج. وعبّر المطران عن خيبة أمل بني قومه حيال فرنسا التي لم تقدّم لهم الدعم، وقد تصّوروا أنها ستقوم أقلّه بعمل سياسي أو عسكري لانقاذهم من محنتهم.

لا تشكّل "النبذة التاريخية" سوى وجه من نشاطات المطران نقولا مراد المتعددة، كما أننا لا نجد أي ذكر لها في رسائله، فهي لم تكن في نظره سوى واحدة من جملة الكتابات التي وجهها إلى أطراف دولية شتى. وهذه النبذة هي بالتحديد، رسالة موجّهة إلى الملك لويس- فيليب، وإلى الرأي العام الفرنسي، دفاعًا عن حقوق الأمة المارونية ومطالبة بدعمها، وقد نشرت أصلًا لجمع التبرعات للمحتاجين من الموارنة. لم يكن المؤلف يعلم أن كراسه هذا سيكون نقطة انطلاق لأدب غزير يشيد بالارتباط العضوي، ومنذ القدم، بين الموارنة وفرنسا. وقد دوّنت النبذة التاريخية نشأت أسطورة، حين ربطت تاريخ الموارنة بتاريخ الأمة الفرنسية انطلاقًا من القديس لويس التاسع، وصولًا إلى بونابرت. صحيح أن بعض الرحالة وأهمهم شأنًا لامرتين[99]، كانوا قد مهّدوا لتلك الأجواء، إنما لم يحققوا تلك القفزة النوعية التي بموجبها أضحى الموارنة فرنسيس الشرق أو الموارنة- الافرنج[100].

هذه النظرة الجديدة تلازمت مع طرح فكرة الاستقلال التي رحّب بها، منذ بداية

الأربعينيات، بعض الفرنسيين المقيمين في بيروت وعلى رأسهم القنصل الفرنسي بوريه الذي اقتنع بامكان قيام امارة مستقلة بحماية فرنسا[101]، مما أثار غضب رئيس الوزراء الفرنسي ووزير الخارجية أدولف تيارس الذي اتّهم القنصل بالانسياق وراء رؤى سخيفة[102]، إذ لم تعتمد الدوائر الفرنسية يومًا موقفًا كهذا، بل كانت تعتمد سياسة أوسع اطارًا على المستويين الاقليمي والدولي. أما علاقة فرنسا المميزة مع الموارنة فكانت من وحي سياسة حماية الكاثوليك في الشرق، وقد وجّه المدير السياسي في الخارجية الفرنسية إلى القنصل العام في الاسكندرية، كتابًا يندّد بموقف القنصل بوريه، وفيه: "أجل، إننا سنحمي أهل لبنان، إذا لزم الأمر، من مصر كما كنا نحميهم في الماضي من باشوات الباب العالي. إنما عليهم الامتناع عن القيام بانتفاضات والكف عن الحلم بالاستقلال. ان بوريه ينجرّ كثيرًا وراء الأحلام. علينا اليوم أن نجد حلًا للقضية العظمى..."[103]. أي المسألة العالقة بين السلطان ومحمد علي برمتها والتي لا تقتصر على قضية جبل لبنان.

أما غيزو الذي عقب تيارس في الخارجية في آخر تشرين الأول 1840، فكان همّه الخروج بفرنسا من العزلة الدولية التي وقعت فيها اثر دعمها لمصر. فانتهج سياسة حذرة داعيًا إلى حلّ القضية بموافقة الدول الكبرى، مكتفيًا بارسال المساعدات للمنكوبين من الموارنة وبتقديم الدعم الديبلوماسي للبطريرك حبيش الذي ما زال يطالب ببشير الثاني أميرًا على الجبل. في اطار هذه المساعي، وجّه سفير فرنسا في الآستانة ديبونتوا تقريرًا إلى باريس، ينقل ما جاء على لسان وزير الخارجية العثماني رشيد باشا: "ان لا مجال لقيام امارة مستقلة في لبنان، إذا لم يكن من داعٍ لنزع ذلك البلد من يد محمد علي حتى يعاد سلخه مجددًا عن سيطرة الباب العالي"[104].

تابعت فرنسا سياسة الحماية بالتفاهم مع الدول الكبرى، فجاءت النتائج دون أماني الموارنة. وما "النبذة التاريخية" سوى تعبير عن خيبة الأمل هذه، وعن الاحتجاج على الوضع القائم؛ فقضية الجبل على أهميتها، لم تحوّل انتباه فرنسا عن مصالحها في سائر أقطار الشرق.

ساد العلاقات الفرنسية – المارونية سوء تفاهم منذ أواخر أيام الحكم المصري. وكادت النمسا، الكاثوليكية تغتنم الفرصة معتمدة على الأب اليسوعي مكسيمليان ريلّلو (Ryllo)، لتحلّ محل فرنسا في دور الحماية. كما حاولت بريطانيا بواسطة ممثلها ريشارد وود (wood) استمالة الموارنة. بينما كان السرّ عسكر المصري يعد الدروز بكسروان ملكًا لهم إلى الابد[105].

في تلك الأثناء كانت فرنسا تتدخل لدى البطريرك وأعيان الموارنة لتنهيهم عن "أعمال الشغب" ضد المصريين، وتؤكّد لهم استمرار دورها في الحماية. فأحدثت عملية التجاذب هذه بلبلة في صفوف الموارنة، وتركت لديهم شعورًا غامضًا حيال مصيرهم. وأذكى الاحتلال المصري نار الفتنة بتقويض أسس النظام التقليدي الذي أمّن للجبل السلام الداخلي في السابق.

أضف إلى ذلك ما شهده القرن التاسع عشر، "قرن التحولات"، من تعديلات في قواعد سلوك الأفراد والجماعات، ومنها قيام التضامن الطائفي محل العلاقات التي سادت مجتمع الاقطاع[106]. فالكنيسة المارونية، التي أضحت أكبر مالك للأرض، صارت هي المؤهلة لقيادة الموارنة. فمجتمعهم ضمن عصبية جديدة باسم "الصالح العمومي" الذي تخطّى العلاقات الاقطاعية السابقة. وحملت هذه الكنيسة ومعظم رجالها من أوساط الفلاحين أيديولوجيتهم القائلة بأن جبل لبنان هو "نوع من الوطن قومي للمسيحيين"[107]. فالتفّ الموارنة حول مؤسستهم الدينية وقد عظم دورها لما حظيت به من دعم فرنسي. كل هذه المعطيات حملت الموارنة على التعلّق بهوية جديدة لم تتحدّد معالمها آنذاك، فمن طائفة معزولة في الأصل صاروا ينظرون إلى أنفسهم كقوم يمتازون بخصوصيات تؤهلهم للحكم من دون تبعية، في حين كان وضعهم على الأرض ما زال يتخبّط في دائرة من المشاكل والانقسامات. وعلى الرغم من نهضتهم وازدهارهم، فقد ظلّوا يشعرون أنهم عائشون في محيط يزداد عداء لهم إذا ما تعاظم طموحهم.

NOTICE HISTORIQUE
DE LA NATION MARONITE
RAPPORTS AVEC LA FRANCE,
DU MONT LIBAN,
Seconde Édition.
PARIS.
LIBRAIRIE D'ADRIEN LE CLERE ET Cie,
1844.

ومع التعديلات المتتالية لنظام الحكم في الجبل، منذ 1840، كان الموارنة في موقف حرج يصعب عليهم استيعاب الأحداث الطارئة بروية وتعقّل وتضامن، مما جعل الغرب يشكّك في قدرتهم وجديتهم. فشبّههم مراقب فرنسي[108] ببني قومهم، قائلًا إنهم مقدامون في الحرب حتى التهوّر إلا أن حماستهم تتقلّص بسرعة أمام أول مقاومة؛ فهم لا يحسبون أي حساب للخطر، فيجازفون، ثم يندمون إذا ما أصيبوا أو هزموا. ويضيف هذا المراقب أنهم يشكون من ضعف اللحمة في صفوفهم، فالتضامن في ما بينهم يقتصر على قراهم وأقاليمهم، ولا تجمعهم عصبية على مستوى أوسع إلاّ بفضل الاكليروس.

ومما زاد في احتقان الوضع الاجتماعي أن جبل لبنان بلغ، بين 1830 و1840، ذروة احتوائه الممكن للسكان[109]. وقد سجل الموارنة تقدمًا ديموغرافيًا على الدروز يشهد للطاقة والحيوية المتزايدتين اللتين ضاعفتا من الخلل الاجتماعي، مما أدّى إلى فقدان التوازن بين الطرفين الأساسيين في الجبل. فكان التفوّق العددي حجة الموارنة لارساء مشروعهم، مما حدا المطران مراد، في ملحق كتابه، إلى عرض احصاء سكاني

لطوائف الجبل يعطي بالطبع، الأكثرية الساحقة لبني قومه. وقد اقترن هذا التحول الديموغرافي بتعديل جذري للعلاقات الاقتصادية على مستوى المنطقة مع بروز أوروبا الصناعية التي اخترقت أسواق الشرق. فتضاعف فقدان التوازن ولاسيّما أن الازدهار الذي رافق هذه الفترة كان من نصيب المسيحيين الذين ربطوا أكثر فأكثر مصيرهم بأوروبا في حين كان الدروز ينظرون إلى الداخل الجغرافي للدعم[110].

- **الأفكار المطروحة في "النبذة التاريخية"**

بعد رسم هذه الصورة للأوضاع، ننتقل إلى التعريف بكتيّب المطران مراد الذي طرح أفكارًا ستنظم النهج الماروني السياسي حتى القرن العشرين.

لا تتعدّى "النبذة التاريخية" 48 صفحة، وقد خصّص المؤلّف 15 صفحة منها لتاريخ الموارنة الديني وعلاقتهم بالكنيسة الرومانية، مثبتًا بالحجج المتراكمة تعلّقهم بالمعتقد الروماني الكاثوليكي الصحيح، من دون انقطاع. فكان همّه اظهار الموارنة أصفياء منذ الينابيع، ولو لفّق الأخبار. ومن ثم ينتقل إلى التعريف بتاريخ لبنان الاقطاعي مكتفيًا بتعداد عائلات الأمراء الشهابين واللمعيين والمشايخ الموارنة وبذكر الدروز عرضًا مقلّلًا من شأنهم. كل ذلك في أربع صفحات لا غير. أما عن العلاقة المارونية – الفرنسية، فقد استفاض بها مكرسًا لها حوالي العشرين صفحة. فأبرز رسائل الحماية الممنوحة من ملوك فرنسا كما ذكر بالعلاقات المباشرة بين الطرفين، فمن الصليبيين إلى بونابرت إلى الأمير دي جوانفيل آخر من زار لبنان، قامت، بنظره، علاقة تسلسلية بين الموارنة وفرنسا من دون انقطاع. وختامًا أفرد مرادست صفحات في "أنساب أمراء لبنان" وفي "جدول مختلف الأمم في تسكن جبل لبنان" مما يعطينا فكرة ولو وجيزة، عن تصوّره لحكومة الجبل.

ليست "النبذة التاريخية" نتاجًا لبنانيًا على الوجه الحصري. فهي ليست وليدة البيئة الجبلية بل نتيجة احتكاك نقولا مراد، ابن الجبل، بالغرب، وهو الذي لم يقم بين 1826 و1844 (سنة صدور الكتاب)، سوى بضعة أشهر في جبل لبنان. وقد قضى معظم هذه الفترة في أوروبا على اتصال بالاكليروس اللاتيني وبالدبلوماسية الدولية، مما ترك الأثر في تكوين فكره السياسي، وأعطى كتابه مسحة غربية لا نلحظها عند معاصريه من الكتّاب الموارنة أمثال شيبان الخازن والعينطوريني وطنوس الشدياق. ونتساءل هنا عن مدى تأثير حركات التحرّر والثورات التي عصفت بأوروبا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، على فكر المطران مراد الذي بقي بحكم مركزه، رجل "الاستبلشمنت" والسياسة المحافظة؟ لا شك في أن حرب التحرير اليونانية كانت، بنظره، سابقة يحتذى بها، وقد امنت، في 1830 وبمساعدة الأساطيل الأوروبية، استقلال شعب مسيحي وخروجه من النير العثماني.

تحت هذا التأثير، كتب المطران مراد تاريخ الجبل، أو بالأحرى أعاد تركيبه على طريقته الخاصة. فكانت الامارة أفقه

السياسي الذي لا يمكن تخطيه، مما يفسّر سعيهُ لاثبات مارونية السلطة فيها. فكما احتكر وبشكل حصري تمثيل صفاء العقيدة المسيحية في الشرق لمصلحة الموارنة، أعاد الكرة واستعاد الامارة لمصلحة بني قومه. فهو يخبرنا في آخر كتابه تحت عنوان "أنساب أمراء لبنان" أن المعنيين، دون ذكر انتمائهم الطائفي، حكموا المقاطعات اللبنانية "لستمائة سنة خلت"؛ وأن الامارة انتقلت بحكم علاقة القربى والنسب، ومن دون انقطاع، من السلالة الشهابية، موحيًا بذلك أن حكم الجبل كان مارونيًا منذ البدء. فشرعيته هي شرعية القدم. ويتابع مراد أن المعنيين والشهابيين كانوا "مستقلين[111] دائمًا في أساليب الحكم وبقي سلطانهم وسلطتهم مطلقين على رعاياهم باستمرار". ومع تضخيمه سلطة حكام الجبل، لم يميّز مراد بين الحكم الذاتي الذي نعمت به الامارة والاستقلال الناجز، بل دمج بينهما ولم يبق لديه سوى تبرير دفع الضرائب للدولة العثمانية، فقال: "وإلى مئة سنة خلت لم يكن أمراء لبنان ملزمين بأية جزية للباب العالي.

في تلك الحقبة بالذات بدأت الأسرة الشهابية تخضع لذلك وتدفع لباشا صيدا ضريبة سنوية قدرها مئة وثلاثون كيسًا فتتجّنب متاعب الأتراك ومضايقاتهم". فالأساس هو الاستقلال بالحكم. أما الضرائب المفروضة فهي على وجه استثنائي لدرء الشرّ. لأن جبل لبنان مهدّد باستمرار من قبل جيرانه، سواء أتمثلوا بالجزّار أم بعبد الله باشا. فمراد لا يفرق بين ظرف سياسي وآخر. وكل غريب يشكّل خطرًا على الامارة. والغريب هو الجار الجغرافي، سواء أكان واليًا أو عينته الآستانة أم قائدًا مصريًّا حليفًا لفرنسا. فبوجه هذا التهديد الدائم ولاستعادة الامارة الشهابية، لا بدّ من ضمانة خارجية ودعم أجنبي أوسع من الحماية الديبلوماسية التقليدية التي كانت تؤمنها فرنسا.

من هنا كان سعي مراد لاحلال فرنسا مكان الدولة العثمانية، واخراج جبل لبنان نهائيًّا من نير السلطنة. ومن المفارقة أن تسليم فرنسا هذا الدور لم يتناف مع مفهوم مراد للاستقلال؛ فهو يطالب، قبل الآوان ومن دون تحديد، بانتداب فرنسي لم تكتمل معالمه ولم تتّضح صورته بعد.

وكما سعى جهده إلى تصوير الموارنة منذ القدم، كقوم مستقيمي الإيمان، ينعمون بالاستقلال في ظلّ امارة مسيحية، كذلك حاول التقليل من شأن الدروز بالتشكيك في دينهم، نافيًا شرعيتهم السياسية ودورهم في تاريخ الجبل. فالدروز في نظره لم ينتشروا ولم يقيموا في لبنان إلاّ في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، كما أن مشايخهم لم يحصلوا على الألقاب إلاّ مقابل الخدمات التى أسدوها للشهابيين. وإن تعلّم بعضهم على يد المسيحيين، فهم اجمالًا أمّيون، لا يجنون سوى حراثة الأرض، بينما الموارنة يتقنون كل المهن التي تمارس في أوروبا، "فالوجه الحضاري الغربي للماروني بأديرته ومدارسه وانتاجه الفكري يعكس الوجه المتخلّف الشرقي للدرزي، رجل الكسل والبطالة". وهذا التفوّق الحضاري للموارنة يقترن بتفوّق عددي، إذ إن الدروز لا

يشكّلون، برأيه، سوى 18000 نسمة بينما يبلغ عدد الموارنة الـ482000.

إلاّ أن مراد لم يسع من أجل وطن قومي للموارنة تتحصر فيه طائفة دون سواها، على الرغم من أنه طالب بإعادة الحكم إلى أسرة مسيحية. وما تعداده "لمختلف الأمم التي تسكن جبل لبنان" من مسيحية ومحمدية إلاّ تسليم منه بتعددية المجتمع اللبناني، وإن بأغلبية عددية مارونية. كما أن زعمه أن الدروز لا يمكنهم العيش دون الموارنة ليس سوى اعترافات على الشكل المعكوس بدور التعايش الذي لم يسقطه من حسابه على الرغم من المجازر والاضطرابات.

هكذا تصوّر مراد الامارة ودور الطوائف فيها. لذلك عُدّ "أول ماروني يضع أساس النظرة الوطنية اللبنانية الحديثة"[112].

واليوم، عسى أن يكون الخطاب الماروني السياسي مرتبط بالدفاع عن الموارنة كجزء من القضية اللبنانية، وقطع الطريق أمام الطروحات والخطابات الوحدوية، والابقاء على لبنان مثالًا لتلاقي الطوائف وتكريس العيش المشترك بين فئات المجتمع.

***

– الهوامش

*** تعد أطروحة دكتوراه في التاريخ – المعهد العالي للدكتوراه – الجامعة اللبنانية**

1. نشطت أخيرًا بعض الدراسات الجامعية في التعريف بدور المطران نقولا مراد الديني والسياسي منها:
– غبيرة (ناجي)، "حياة المطران نقولا مراد ودوره الديني والوطني"، الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الانسانية-2، قسم التاريخ، السنة الاولى، الفنار، 1985.
– مارون (اميل الياس)، "المطران نقولا مراد (1799-1862) بين الدين والسياسة"، رسالة لنيل شهادة دبلوم الدراسات المعمّقة في علم اجتماع المعرفة، الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية، النقاش، ايلول، 1987.
– لبّس (انطوان) "توجهات الاكليروس الماروني السياسية في جبل لبنان (1843-1876)" أطروحة دكتوراه – حلقة ثالثة، جامعة الروح القدس- الكسليك، كلية الآداب، قسم التاريخ، 1987، ص.21-27.

2. بمعنى الطائفة المارونية. وقد درج في القرن التاسع عشر، استعمال كلمات: أمة، طائفة، ملّة وشعب احياناً دون تمييز. راجع توضيح:
Chevallier (Dominique), La société du Mont-Liban à l'époque de la revolution industrielle en Europe, Paris, 1982, XI.

3 Notice historique sur l'origine de la nation maronite et sur ses rapports avec la France, sur la nation druze et sur
Les diverses populations du Mont-Liban, Paris, Librairie d'Adrien Le Clere et Cie, 1844.

4 Gemayel(Nasser), Nicolas Murad, un précurseur, in Echos du Liban, décembre 1979, n.20, p.27 .

5. غانم (يوسف خطّار)، برنامج أخوية القديس مارون، ج2، المطبعة الكاثوليكية، 1903، ص 182 - 184.

6. م.ن، ص 183

7 Murad (Mgr Simon), op. cit., p.8 .

8 Murad (Mgr Simon), op. cit., pp.8-9، غانم، م.س، ص 183.

9 نورد هذه الرواية بكل تحفّظ.

10 Koroleveskig, art. Beyrouth, in Dictionnaire d'Histoire et de Géographie Ecclésiastique, Paris,1935, VIII, col.1320 .

11. الغسطاوي (الأب بولس)، الموارنة في ليفورنو، المشرق، 1900، ص 927.

12 Cf.Livourne, in Kuri(Sami), Une histoire du Liban à travers les archives des Jésuites, Beyrouth,1985,p.550 .

13 وهذه عيّنة من مراسلات تلك الفترة:
– مراد إلى قنصل مملكة نابولي، 9 تموز 1829، في حرفوش (الأب ابراهيم)، علاقات بطاركتنا مع الدول، المنارة 1983، العدد3، ص391، حول الحصول على كنيسة للموارنة في نابولي.
– مراد الى الحبشي، 3 آذار 1832 (وثيقة 6816، جارور حبيش، ارشيف بكركي) حول الخلاف بين الكرسي الرسولي وفرنسا.
– مراد الى غران دوك توسكانا، حزيران 1834 (ارشيف الكريم)، كتاب مديح بالألسن الشرقية.
– قنصل النمسا في توسكانا إلى مراد، 31 تشرين الأول 1836 (وثيقة 4591، جارور حبيش، ارشيف بكركي) حول وفاة الخوري جرجس غانم.

14. مراد إلى الحبيشي، 29 أيلول 1835، في السبعلي (الأب يوحنا مارون)، سمط الحبيب، المجلّد الخامس، ص 304 (ارشيف الكريم).

15. الحبيشي الى مراد، دون تاريخ، والأرجح أن تعود الرسالة للنصف الثاني من سنة 1835 في السبعلي، م.س، ص 474-475.

16 Habeiche à Roothan, 15 mars 1836, in Kuri, op. cit., p.195 .

17. مراد إلى الحبيشي، 17 أيار 1838 (وثيقة 5133، جارور حبيش، ارشيف بكركي).

18. مراد إلى الحبيشي، 23 حزيران 1838 (وثيقة 5114، جارور حبيش، ارشيف بكركي).

19. يوسف المعلم(؟) إلى الحبيشي، 17 كانون الأول 1838 (وثيقة 5137، جارور حبيش، ارشيف بكركي).

20 L'Ami de la Religion, 23 novembre 1839, p.372 .

21. مذكرات المطران مراد (ارشيف الكريم).

22Soult à Jouanin, les mars 1840, in Ismail, op. cit., 6, pp.21-22 .

23 مذكرات المطران مراد (ارشيف العريمة)، راجع كتاب الحماية الموقع من بروسبير بوريه قنصل فرنسا في بيروت في 6 صفر 1256 هـ. 9 آذار 1840. (ارشيف العريمة).

24 L'Ami de la Religion, 24 décembre 1839, p.581 .

25 Murad à Louis-Philippe, février 1840, in Ismail, op. cit., 6, pp, 261-264 .

26. سفير فرنسا لدى الكرسي (Latour-Maubourg) مسودة باللغة الايطالية من مراد الى كونت لا يذكر اسمه (والأرجح ان يكون لاتور- موبور - الرسولي)، 7 آب 1840 (وثيقة 5894، جارور حبيش، ارشيف بكركي).

27 Murad au Ministre des Affaires Etrangéres, 28 aout 1840 .
(وثيقة 5901، جارور حبيش، ارشيف بكركي).

28 L'Ami de la Religion, 10 septembre 1840, pp.487-488; Poujoulat (Baptistin), Voyage dans l'Asie Mineure, en . Mésopotamie, à Palmyre, en Syrie et en Egypte, Paris, 1841, pp.585-588.

29Cf. Hjjar (Joseph), L'Europe et les detinées du Proche-Orient, 1970, p.521 .

30Murad au Ministre des Affaires Etrangéres , 18 novembre 1840.
(وثيقة رقم 5899، جارور حبيش، ارشيف بكركي). ويبدو أن مراد كان قد وجّه كتابًا إلى العاهل الفرنسي في 7 تشرين الاول 1840، يشكر به تصرّف القنصل بوريه، في حرفوش، م.س، ص 398.

31 Latour-Maubourg à Guizot, 8 janvier 1841, Archives du Quai d'Orsay, Rome, vol.983, fol. 14-16, in Hajjar, po.cit., p.522.

32 Relation de Lautour-Maubourg, 18 février 1841
Archives du Quai d'Orsay, Rome, vol.983, fol.59-63, in Hajjar, op. cit., p.526.
عن عودة مراد إلى جبل لبنان، راجع أيضًا:
Roothan à Ryllo, Rome, 12 février 1841, in Kuri, op. cit., p.299.

33. مشاقة (ميخائيل)، منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، بيروت، 1955، ص 152.

34. راجع نص هذه العريضة في مجموعة المحررات السياسية، تعريب فيليب وفريد الخازن، جونية، 1910، مجلّد اول، ص.50-52.

35 Bourqueney à Guizot, 1 Février 1843; Guizot à Bourqueney, 24 Février 1843, in Piéces Communiquées à la .Chambre des Députés sur les affaires du Liban pendant les années 1843, 1844 et 1845, pp.9-11.

36. الفاخوري (الأب ارسانيوس)، تاريخ ما توقع في جبل لبنان، مخطوطة (الجامعة الأميركية في بيروت)، ص41-42. Ms 956.9.t.18.

37. مراد إلى الحبيشي، 17 كانون الثاني 1842 (وثيقة 6820، جارور حبيش، ارشيف بكركي).

38 Traduction du Memorandum présenté à la Sublime Porte au sujet de la question du Liban par Nicolas Murad, .8 secrétaire du Patriarche des Maronites envoyé expréssement à Costantinophe, 17 cheval (شوال) 1257 (2 Décembre 1841) (Archives Kreim)

39Murad à Guizot, 7 Janvier 1842, in Ismail, op.cit, 25, pp.219-220 .

40 Murad à Roothan, 7 Février 1842, in Archivum Romanum Societatis Iesu, (ARSI), Missio Syriana, 1002, III, 6

41 Murad à Lautour-Maubourg, Archives du Quai d'Orsay, Rome, vol. 984, fol. 84, in Hajjar, op. cit., p. 575

42 Roothan à Murad, 2 Avril 1842, in kuri, op. cit, pp. 340-341 .

43 Traduction d'une Requête adressé à la Sublime Porte en date du 12 Février 1842, par l'abbéMurad, Délégué .13 par la Nation Maronite à Constantinophe, in Ismail, op. cit, 25, pp. 290-291.

44 Bourqueney à Guizot, 17 Février 1842, ibid, 25, pp. 286-289 .

45 Murad à Guizot, 27 Mars 1842, ibid, 25, pp. 333-335 .

46 A. LL. E. E. les Représentants des Puissances Chrétiennes auprés de la Sublime Porte, 20 Avril 1842, ibid, 25, .16 pp.351-335.

47 Murad à leurs Excellences Messieurs les Représentants des Puissances Protectrices des Chrétiens Libanais .17 (Traduction), 20 Mai 1842, ibid, 25, pp.424-428.

48 Murad à de Pontois, 7 Mai 1842, ibibd, 25, pp.365-368 .

49 Bourqueney à Guizot, 26 Mai 1842, ibid, 25, pp.382-386 .

50 Bourqueney à Guizot, 6 Février 1842, ibid, 25, pp. 232-239 .

51 Ibid .

52 Bourqueney à Guizot,17 Janvier 1846, ibid, 28, pp.105-108 .

53 Bourqueney à Guizot,27 Juin 1842, ibid, 26, pp.15-17 .

54 Bourqueney à Guizot, 16 Juillet 1842,26, ibid, 26, pp.38-40 .

55 Bourqueney à Guizot,14 Jnvier 1842, ibid, 25, pp.224-227 .

56 Guizot à Bourqueney,7 Juillet 1842, ibid, 26, pp. 23-24 بخصوص المطالبة بالأمير أمين بدلاً من أبيه الأمير بشير، والدور الذي أوكل إلى الأب مراد، راجع: Stratford Canning والمشاورة بين بوركنيه والسفير البريطاني ستراتفورد- كاننغ. Bourqueney à Guizot, 16 Juin 1842, ibid, 25, pp. 419-424.

57. مراد الى الخواجات مطر، 19 تشرين الثاني 1842 (ارشيف العريمة).

58. مشاقة، م.س، ص 153.

59. جارور حبيش، (وثيقة 6818، ارشيف بكركي، 26 تموز 1842). لم نتحقّق من هويتي المرسل والمرسل إليه.

60 Bourée à Guizot, 20 Aout , in Ismail, op.cit.,7, pp. 186-189 .

61 Bourqueney à Guizot, 26 Septembre 1842, ibid, 26, pp.196-197 .

62 Murad à leurs Excellences Messieurs les Représentants des Puissances Protectrices des Chrétiens du. 32

63 Mont-Liban auprés de la Sublime Porte, 19 Novembre 1842, (Archives Kreim)

64 Murad aus Représentants des Cinq Grandes Puissances prés de la Sublime Porte (Traduction), 9 DéCEMBRE 1842, in Ismail, op, cit., 26, pp. 266-269

Murad à Guizot, (Traduction), 27 Novembre 1842, ibid, 26, pp.250-252. Murad à Messieurs les Représentants .33 des Principales Puissances Chrétiennes prés de la S.P. (Sublime Porte) 29 Janvier 1843, (وثيقة 1821، جارور حبيش، ارشيف بكركي)، نشرت ترجمة هذا الكتاب في الخازن (فيليب وفريد)، المحررات السياسية والمفاوضات الدولية على سوريا ولبنان، الحازمية، ط.2، المجلد الأول، ص 113-115. نلفت النظر هنا إلى أن مراد لم يكن في هذا التاريخ قد سيم مطرانًا.

مراد إلى حيدر أبي اللمع، 20 نيسان 1843، في مسعد (الاب بولس) والخازن (نسيب وهبه)، الأصول التاريخية، المجلد الثاني، ص 317-34318.

65 Murad à Guizot, 13 Juillet 1843, in Ismail, op.cit., 26, pp.325-327 .

66 Bourqueney à Murad, 26 Septembre 1843, ibid, 26, pp.332-333 .

67. الدبس (يوسف)، الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، بيروت، 1905، ص 549- 550.

68 Koroleveskij, op.cit.

69 L'Ami de la Religion, 13 Janvier 1844,p.88.

70 Ibid, 2 Juillet 1844, p.6 .

71 Ibid, 11 Janvier 1844, p.74.

72 de l'Ambassadeur Britannique (Lord Cowley) à Paris au Ministre des Affaires Etrangéres .42 (Lord Aberdeen), 4 Mars 1844, in De Testa (Baron I), Recueil des Traités de la Porte Ottomane, Paris, 1868,p.137.

73 Murad à Louis-Philippe, 30 Avril 1844, in Ismail, po. Cit,7, pp.354-355 .

74 Requête des Chrétiens du Mont-Liban au Roi de France (Louis-Philippe), 28 Mars 1844, in De Testa, op. cit,p.138.

75 Guizot à Murad, 11 Avril 1844, , (Archives Kreim) .

76. مذكرات المطران مراد، (ارشيف العريمة).

77. مراد الى يوحنا اسلامبولي، 7 آذار 1844 (وثيقة 7299، جارور حبيش، ارشيف بكركي).

Murad à Bouqueney, 27 Avril 1844, (Archives Kreim) .78

79. مراد الى مشايخ النصارى، 23 نيسان 1844 (ارشيف الكريم).

80 Requête des Chrétiens du Mont Liban au Roi de France, 28 Mars 1844, in De Testa, op. cit, pp. 138-142.

81 Dépêche de l'Ambassadeur Britannique (Lord Cowley), à Paris au Ministre des Affaires Etrangéres .51 (Lord Aberdeen), 4 Mars 1844, ibid, pp.137-138.

82 Mgr Tobie Aoun au Colonel Rose, 9 Mars 1844, ibid, p.138 .

83 Mémoire de Murad é Aberdenn, 10 Avril 1844, ibid, pp. 143-145 .

84 Murad à Stratford Canning; 17 Avril 1844, (Archives Kreim).

85 Aberdeen à Murad, 27 Avril 1844, (Archives Kreim).

86 Requête des Chefs Députés des Chrétiens du Liban à Lord Aberdeen, 3 Avril 1844, in De Teswta, op. cit, pp.142-143.

87 Aberdeen é Murad, 18 Mai 1844, (Archives Kreim), letter reproduite dans une version légèrement différente in . De Testa, op. cit, p.147.

88 Patriarche des Maronites au colonel Rose, 30 Mai 1844, De Testa, op. cit, pp147-148 .

89 Elia Hava au Baronde Stûrmer, 28 Juin 1844, bid, pp.149-150 .

90. عريضة نصارى جبل لبنان، 3 تموز 1844 (ارشيف الكريم). في الواقع صدرت هذه العريضة عن أهالي كسروان (ومنهم مشايخ بيت الخازن وبيت الدحداح ورؤساء أديرة كسروان وغيرهم من أهالي كسروان).

91 Dépêche d'Aberdeen à Cowley, 5 Juillet 1844, in De Testa, op. cit., pp.152-153.

92 Observations du Secretaire Oriental (Alison) de l'Ambassade Britannique à Constantinople sur le Mémoire de. l' Archevêque Murad, 3 Septembre 1844, ibid, pp.154-158.

93 Bourée à Guizot, 30 Juillet 1844, in Ismail, 7 op. cit, pp.386-407 .

94 Murad à Guizot, 29 Juillet 1844, ibid, 7, pp.384-386.

***

95 Poujade à Guizot, 25 Aout 1844, ibid, 7, pp.422-430 .

96 L'Ami de la Religion, 15 Juin 1844, p.571 .

97. هل يعني ذلك ان "النبذة التاريخية". وضعت في تاريخ سابق ثم نشرت عام 1844 مع بعض الزيادات؟

98 Guichen (Vicomte de), La crise d'Orient de 1839 à 1841 et l' Europe, Paris 1921, pp.382-383, 395-396.

99 Lamartine (Alphonse de), Voyage en Orient, Paris, 1835 .

100. كثيرون حذوا حذو المطران مراد في هذا النهج حتى ان "النبذة التاريخية" غابت تحت وطأة ما عقبها من مؤلفات ومع تنامي الأدب الماروني- الفرنسي (إذا صحّ التعبير) اثر حوادث 1860. إنما بقيت النبذة هذه المرجع والمصدر الأول لكل داعٍ إلى تثبيت أقدام فرنسا في لبنان وبين مسيحييه.

101 Bourée à Thiers, 21 Mai 1840, in Ismail (Adel), Documents Diplomatiques et Consulaires, les sources française. Consulat de Beyrouth, 6, pp.24-30.

102 Thiers à Cochelet, 29 Juillet 1840, in Charles-Roux (François), Thiers et Méhémet - Ali, Paris, 1951, p.109 .

103 Desages à Cochelet, 7 Juillet 1840, in Charles-Roux, op. cit, p.83 .

104 De Pontois au Ministére des Affaires Etrangéres, 7 Mars 1841, Archives du Quai d'dOrsay, Turqui, Vol. 282. fol 156-157, in Hajjar (Joseph), l'Europe et les destinées du Proche-Orient,1970, p.527.

105. راجع رستم (أسد)، بشير بين السلطان والعزيز، القسم الثاني، بيروت، 1957 ص. 206-207.

106. فارس (هاني)، النزاعات الطائفية في تاريخ لبنان الحديث، بيروت، 1980، ص. 55.

107 Khalaf (Samir), Persistance and change in 19th century Lebanon, Beirut, 1979, p.39.

108 Denis (A), Etudes politiques et diplomatiques sur le Liban, (extrait de la Revue d'Orient), Paris, 1844, pp. 5-6 .

109 Chevallier, op, cit, pp.39-48 .

110 Ibid, p.48 .

111. إنها المرة الوحيدة التي استعمل فيها كلمة استقلال.

112. حريق (ايليا)، التحوّل السياسي في تاريخ لبنان الحديث، بيروت، 1982، ص 107.

***